ابن رُشد
فيلسوف العرب الأكبر

ابراهيم الخال

كتب المفكر الانجليزي « جون روبرتسن » ، أحد أقطاب حرية الفكر الذين ظهروا في تاريخ انكلترة ، فقال عن ابن رشد في كتابه « موجز تاريخ الفكر الحر » [— ١/٢٧٧ —] بأنه « كان أكبر المفكرين المسلمين تأثيراً في الفكر الاوربي ، وانه أحسن من شرح أرسطو ، وكان فضله ظاهراً بشرحه مذهب الوهية العالم ، وهو المذهب الذي يقول بأزلية الكون ، وبأن النفس المنفصلة انما تخلق من النفس الكلية ، ثم ترجع اليها وتتلاشى فيها ، وهو شرح جعل لابن رشد شأناً باذخاً في دنيا الفكر الاسلامي والفكر المسيحي سواء بسواء . »

ذاك هو أبو الوليد ، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أكبر فلاسفة العرب والاسلام ، الذى لعبت افكاره وشروحه دوراً جباراً في عصر النهضة الأوربية التي أعقبت ليل القرون الوسطى الطويل ، وهي نهضة تمخضت عن كتاب عباقرة كبا ر، فتحت أفكار ابن رشد عيونهم خلالها على تراث الفكر اليوناني وما انطوى عليه من حرية فكرية وغير ، ليتمكنوا بعدها مع مر السنين من تهيئة الشعوب الأوربية لاسترجاع حرياتها السليبة ، فكانت هناك الثورات المتلاحقة التي تفجرت على صعيد أوربا ، والتي امتد شررها بعد ذلك من أوربا الى أربعة أركان العالم .

ولد ابن رشد بمدينة قرطبة بالأندلس عام ١١٢٦ في بيت علم عريض الجاه ، فقد كان أبوه قاضياً لقرطبة ، وكذلك جده ، وهما من أعلام المذهب المالكي في ذلك العصر . ولمحمد بن رشد — الجد — مجموعة من الفتاوى ، جمعها بعض مريديه وهي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، وتحمل الرقم « ٣٩٨ — مخطوطات عربية » . أما أبو الوليد نفسه ، فقد تولى القضاء أيضاً ، ولكن في اشبيلية ، ومن بعد في قرطبة .

وكان ابن رشد قد درس في مطلع حياته الفقه المالكي على أبيه ، كما درس الطب على كبار أطباء عصره ومنهم هرون المكنى بأبي جعفر[1]. أما الفلسفة ، فقد درسها على اساتذة ذوي اقتدار كما يظهر ، لم يحتفظ لنا التاريخ ببعض اسمائهم بين فلاسفة العالم الكبار . وكان رأينا أن نرفض رأي العالم الطبيب المؤرخ ابن ابي اصيبعة في ان ابن رشد قد درس الفلسفة على فيلسوف الاسلام الكبير ابن باجه ، وذلك بعد أن رأينا بأن وفاة ابن باجه كانت عام ١١٣٨م ، أي عندما كان ابن رشد لم يزل بعد طفلا لا يستطيع استيعاب افكار اسطو واضرابه . غير ان استاذنا الفاضل الدكتور مصطفى جواد ، وهو الحجة السند ، قد نبهنا الى ضرورة الاحتراس وعدم الاعتماد على التواريخ الميلادية في مسائل مثل هذه بسبب ان المؤرخين الغربيين يخطئون أحياناً في نقلهم التاريخ الهجري الى التاريخ الميلادي .

كذلك فان الذي يظهر لنا هو ان ابن رشد كان يدرس الفلسفة أيضاً على نفس الاساتذة الذين درس في بيوتهم الطب ، فقد كان الأطباء كما هو معلوم ، أكبر الناس عناية بدراسة الفلسفة تلك الأيام . ولقد كانت لابن رشد علاقات وثيقة مع كبار علماء عصره وفي طليعتهم آل زهر الذين برز منهم أبو بكر بن زهر ، طبيب الأمير الحاكم في الاندلس آنذاك ، وغيره ممن برزوا في ميادين الفقه والأدب . على أن صلة الود بين ابن رشد وصنوه فيلسوف الاسلام الكبير ابن طفيل ، لم تبلغ مثلها بين فيلسوفين كبيرين ورجلين عظيمين يوماً من الأيام .

وكان ابن رشد قد شد الرحال من قرطبة الى مراكش عام ١١٥٤م قاصداً ابن طفيل الذي كان ذا حظوة ونفوذ كبيرين في بلاط الأمير عبدالمؤمن ، الحاكم الثاني لدولة الموحدين . ولقد استقبله ابن طفيل استقبالا حسناً ، وأنزله منزلا كريماً ، ثم أصبحا لا يفترقان الا للضرورة ، فكانا يتبادلان وجهات النظر في القضايا الفلسفية كلما اجتمعا ، وبقيا على تلك الحال كأحسن ما يكون عليه صديقان عظيمان مدة طويلة من الزمن . وعندما توفي عبدالمؤمن ، وخلفه على الحكم ابنه الأمير يوسف ، طلب هذا من ابن طفيل أن يجد له من يزيل الغموض عن كتابات ارسطو المترجمة الى العربية ويشرحها ، فما كان من ابن طفيل الا ان يبادر الى صديقه ابي الوليد ليخبره رغبة الخليفة ، ويرجوه بأن يضطلع بهذه المهمة الكبيرة ، معتذراً عن نفسه بكبر السن ومشاغل الحياة التي تحول دون قيامه هو بالأمر ، فوافق ابن رشد . وبهذه المناسبة ، لابد من الاشارة الى ان ابن رشد كان قد انكر « اشتغاله بالفلسفة » عندما جمعه قبل ذلك ابن طفيل بالأمير يوسف . لكنه بتشجيع من ابن طفيل الذي راح يتكلم أمام يوسف ويعرض آراءه الفلسفية بصراحة ، بدأ ابن رشد يدلي برأيه في المسائل الفلسفية التي

(١) الاقلام : في عيون الانباء لابن أبي أصيبعة انه « جعفر بن هارون » .

استفسر عنها يوسف ، وهو ما يدلنا بوضوح على أن دراسة الفلسفة وتدريسها كان يجري بصورة سرية خوفاً من تهم الكفر التي قد يوجهها رجال الفقه الى دارسي الفلسفة ٠

ولم يكن ابن رشد يعرف اللغة اليونانية بحال ٠ لذلك فان شروحه لأرسطو كانت قد وضعت بموجب الترجمات العربية التي قام بها العلماء في حواضر الشرق الاسلامي في القرن الثالث الهجري ، وهو ما أدى الى وقوع ابن رشد في بعض الأخطاء بسبب ضعف بعض التراجم العربية وسوء فهم بعض اولئك المترجمين القدامى لليونانية ٠ من ذلك انه كان يخلط بين فيثاغورس وبروتاغوراس ، كما كان يظن بأن اسم هيروقليدس يعود الى جماعة يقف على رأسهم سقراط ، الى غير ذلك من الأخطاء التي استغلها ضده اعداء الفلسفة من أحزاب كنائس عصر النهضة في أوربا ٠ على أن ابن رشد لم يكن ليثق بترجمة عربية واحدة بعينها ٠ انه كان يجمع كل ما يتيسر له من التراجم ، ثم يقوم بالمقارنة الدقيقة فيما بينها الى أن يضع يده على الغرض الأصلي الذي يرمي اليه ارسطو ، وبذلك جاءت شروحه بمثل تلك الروعة والهيبة ، مما يؤكد على عظمة الفكر الجبار الذي كان يتمتع به ابن رشد ٠ ولقد قال ارنست رينان عن شروح ابن رشد هذه بأن « ارسطو كان قد ألقى نظرة صائبة على الكون فشرح منه ما غمض ٠ ومن بعده جاء ابن رشد والقى نظرة صائبة على فلسفة ارسطو فشرح منها ما غمض ٠ » ٠ وكان ابن رشد قد وضع ثلاثة شروح لأرسطو هي الصغير ، والوسط ، والكبير ٠ والشرح الكبير بالطبع ، هو أوفاها وأوسعها ، اذ تناول فيه فلسفة أرسطو فقرة فقرة ، وقام بشرح كل منها شرحاً مستفيضاً ٠ أما الشرح الصغير ، فهو ملخص لتحليل فلسفة ارسطو ٠ غير انه في الشرح الوسط ، كان يتناول الجمل الأولى من الفقرات ثم يستطرد في شروحه لها على طريقة من سبقه من فلاسفة المسلمين ٠

ولم يكن ابن رشد شارحاً وحسب ، انما كان ذا مذهب فلسفي خاص به أيضاً ، فقد نقد فلسفة ابن سينا والفارابي نقداً شديداً واستخلص منها ما يتفق مع آرائه ، ثم وفق كل ذلك مع فلسفة ارسطو بعد أن جردها من الثنائية التي امتازت بها ــ القوة والمادة ــ مستعيضاً عنها بوحدانية الله العلي العظيم الذي قال بأنه مصدر الكائنات وكل الوجود ٠ وكان ابن رشد قد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين فوضع لهذا الغرض كتابين هما « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وهي نفس المحاولة التي حاولها قبله أبو نصر الفارابي ٠ ففي الكتاب الأول ، برهن بمختلف الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة على أن الشرع يبيح دراسة الفلسفة ، كما بين ضرورة استعانة الفيلسوف أو الحكيم بآراء من سبقه من الفلاسفة ، سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم ٠ وقال بأن ما يوافق الحق من آراء هؤلاء فهو مقبول ،

وما هو مخالف له مرفوض وعلينا أن نحذر منه • ولقد رد ابن رشد في هذا الكتاب أيضاً على الغزالي في القضايا التي كفر بها ابن سينا والفارابي •

والكتاب الثاني ـ مناهج الأدلة ـ هو من قبيل الأول دونما شك ، وقد حاول فيه التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، كما هاجم بعض الفرق الاسلامية التي عاصرته ، كالأشعرية والحشوية والباطنية ، وراح يبرهن على ضلالها • ثم هو يلتفت الى ابن سينا ويشير اليه اشارة مهينة كونه يميل الى ما يشابه بعض آراء الأشعرية في العالم والوجود ، وذلك باسلوب خشن ما كان يصح أن يستعمله ابن رشد ، وهو النابغة الألمعي ، ضد نابغة مثله من أفاضل الرجال • بعد ذلك يتكلم عن أهل التصوف وطرقهم في معرفة الله والوجود ، ثم يبين بأنه لا يتكلم عن المتعزلة لعدم تيسر كتبهم لديه • وفي هذا الكتاب أيضا ، يبرهن ابن رشد على وجود الله ، ويتكلم عن صفاته سبحانه ، ويبين وجه اختلافه مع العقيدة المسيحية ، ورأيه في خلق العالم والقضاء والقدر والمعاد وغير ذلك من المسائل التي اختلفت فيها الشريعة مع الفلسفة •

ولابن رشد كتب كثيرة تربو على الخمسين مؤلفاً ، أغلبها في الفلسفة ومنها في الطب والفقه أيضاً • على أن أكبر كتبه صدى في العالم الاسلامي في حينه ، بعد شروح ارسطو ، هو « تهافت التهافت » الذي رد به على الامام الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » •

وكان أبو حامد الغزالي قد وضع « تهافت الفلاسفة » بعد أن درس الفلسفة دراسة وافية ، وهو يركز فيه على فلسفة ابي نصر الفارابي وابن سينا المستمدة من فلسفة ارسطو ، ويكفرهما بسبب ما جاءا به من آراء اعتبرها خروجاً على الأسلام واهانة لشعائره • وفي ذلك يقول أبو حامد : « ابتدأت بتحرير هذا الكتاب رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عندالأذكياء••• » ، بعد ذلك يشير الى الفلاسفة المسلمين الذين نهجوا نهج هؤلاء الفلاسفة القدماء فيقول ساخطاً عليهم ، معلناً كفرهم في انهم « قد رفضوا طوائف الاسلام والعبادات واستحقروا شعائر الدين ، وخلعوا ربقته ، ولا مستند لكفرهم غير سماع الغي وسماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وافلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم • » •

ولقد فند الغزالي آراء الفلاسفة وبين تناقضاتها على طريقته في عشرين مسألة ، منها ثلاث مسائل أكد فيها على كفرهم ووجوب قتلهم ، وهو رأي ما كان بودنا أن يصدر عن الغزالي الذي كان نفسه رجلا من رجال الفكر الكبار •

أما المسائل الثلاث هذه ، فهي رأي الفلاسفة في :

(١) أزلية العالم •

(٢) علم الله بالجزئيات ·
(٣) حشر الأجساد وبعثها ·

وكان الغزالي يتفق مع الذين هاجمهم في الكثير من الآراء · غير أنه في « تهافت الفلاسفة » قد ظهر بمظهر المناوىء لتلك الآراء جميعها ، ثم أصبح أكبر المدافعين عن الشريعة ضد الفلسفة في عصره ، اعتقاداً منه بأن الطرفين لا يمكن أن يعيشا سوية ويزدهرا على صعيد واحد · على أن واقع حال الأمام الغزالي لم يكن بالحقيقة مع هذا الجانب أو ذاك : لقد عاش الرجل بعقلية فيلسوف جبارة ، في نفس الوقت الذي كان يعيش فيه بعاطفة من اسمى العواطف النبيلة التي دفعته الى التطلع بحرقة الى الذات العلية ، وهو سبب احتضانه للشريعة · بعد ذلك كان حب الغزالي لله وتلهفه للتقرب منه قد أدى به أخيراً الى الاعتكاف والانقطاع الى العبادة فعاش عيشة الصوفية الزاهدين الى أن توفي عام ١١١١م ·

وكانت الفلسفة قد عاشت محنة مخيفة مدة سنين طويلة بعد « تهافت الفلاسفة » الى أن انبرى للدفاع عنها ابن رشد بكتابه « تهافت التهافت » الذى فند فيه اتهامات الغزالي جميعها وأبطل مفعولها بمنطق فلسفي لا تلمس فيه غير الأصالة والعمق ، ولا تلمح من وراء متونه غير بروق فكر جبار آلمه استعداء علم من أعلام الفكر الاسلامي كأبي حامد الغزالي ، الناس على الفلسفة ورافعي ألويتها في دنيا الأسلام · ولقد كان عتابه للغزالي في الأوج من الشدة والحدة ، ثم في الأوج من الروعة عندما يقول :

« وأما قوله ــ قول الغزالي ــ ان قصده هنا ليس هو معرفة الحق ، وانما قصده ابطال أقاويلهم ــ أقاويل الفلاسفة ــ واظهار دعاواهم الباطلة ، فقصد لا يليق به ، بل بالذين في غاية الشر · وكيف لا يكون ذلك كذلك ومعظم ما استفاد هذا الرجل من النباهة وفاق الناس فيما وضع من الكتب التي وضعها ، انما استفادها من كتب الفلاسفة ومن تعاليمهم ؟ وهبك اذا اخطأوا في شيء ، فليس من الواجب أن ينكر فضلهم في النظر وما راضوا به عقولنا · ولو لم يكن لهم الا صناعة المنطق ، لكان واجباً عليه وعلى جميع من عرف مقدارها شكرهم عليها ، وهو ــ أي الغزالي ــ معترف بهذا المعنى وداع اليه ، وقد وضع فيها التآليف ، ويقول انه لا سبيل الى أن يعلم أحد الحق الا من هذه الصناعة ، وقد بلغ الغلو فيها الى أن استخرجها من كتاب الله تعالى · افيجوز لمن استفاد من كتبهم وتعاليمهم مقدار ما استفاد هو منها حتى فاق أهل زمانه ، وعظم في ملة الاسلام صيته وذكره ، أن يقول فيهم هذا القول ، ويصرح بذمهم على الاطلاق وذم علومهم ؟ »

ولقد سبق ابن رشد علماء النفس المعاصرين بثمانية قرون حينما ربط بين الأحلام واللاشعور أو العقل الباطن ــ وقد أشار اليه باسم « العقل الفعال » ــ وذلك عندما رد على الغزالي حول موضوع الرؤيا

اذ يقول : « ان ما حكاه الغزالي في الرؤيا عن الفلاسفة فلا أعلم أحداً قال به من القدماء • والذي يقول القدماء في أمر الوحي والرؤيا انما هو عن الله تعالى بتوسط موجود روحاني ليس بجسم ، وهو واهب العقل الانساني عندهم ، وهو الذي يسميه الحذاق منهم العقل الفعال ، ويسمى في الشريعة ملكاً • » •

وكان ابن رشد أكبر رجال الفكر المسلمين الذين دعوا الى النظام الجمهوري • ولا غرابة في ذلك ، فهو شارح جمهورية أفلاطون • لذلك نراه يقول بوضع السلطة بأيدي الشيوخ ، وبضرورة تربية ابناء الأمة على مباديء الفضيلة التي جاء بها أفلاطون ، ثم بضرورة وجود الجيش القوي لحماية أمن الجمهورية •

كذلك كان ابن رشد من أكبر انصار المرأة • ولقد بلغ به انتصاره لها درجة جعلته يرشحها لمنصب رئاسة الجمهورية ، وقال بانها تستطيع أن تقوم بالاعمال التي يضطلع بها الرجال ، حتى في ميادين الحرب والفلسفة، بل وقد تفوقهم في ميادين فنية معينة ، كالموسيقى •

وهناك بين نظريات ابن رشد ، نظرية الحق المزدوج ، أو الحقيقة المزدوجة ، وهي نظرية تقول بأن في الوجود حقيقتين مستقلتين عن بعضهما ومتناقضتين • الحقيقة الأولى دينية ، والثانية فلسفية • فحشر الأجساد وبعثها مثلا ، قد يكون شيئاً حقيقياً من وجهة النظر الدينية ، لكنه شيء باطل من وجهة النظر العقلية الفلسفية ، اذ قد يجري الحشر والبعث على صورة لا تدركها عقولنا ثم شاءت حكمته سبحانه تقريبها لأذهان سائر الناس على الصورة التي وردت في الشرائع •

وكانت هذه النظرية مع تعاليم ابن رشد الأخرى قد اجتازت الاندلس الى فرنسا ودرست في مونبليه ، كما أدت الى ظهور مدرسة من أحرار الفكر في باريس ، راحت تحاول الحد من سلطان الكنيسة التي استعبدت في حينه أفكار الناس ، وسلاحها ــ سلاح المدرسة ــ فلسفة ابن رشد ، فكانت تقول بأن قصة « التكوين » و « آدم » ، وبعث الأجساد وغير ذلك من المسائل الدينية المشابهة انما هي حقيقية بالنسبة للدين ، وباطلة بالنسبة للعقل والفلسفة •

ثم وصلت نظريات ابن رشد هذه الى ايطاليا قادمة من فرنسا • بعد ذلك راحت تسري مسرى النار في الحطب في جميع أرجاء أوربا ، فاحتضنها احرار الفكر في كل مكان على الصعيد الأوربي الذي جثم كابوس السلطة الكنسية الكهنوتية الغاشمة على صدر ساكنيه مدة ألف سنة بالتمام ، وهي المدة التي استغرقتها القرون الوسطى • ولم يكن هناك في أوربا جميعها من استطاع أن يرفع اصبعاً واحداً بوجه تعاليم الكتاب المقدس طيلة هذه السنين الطويلة دون أن يدركه الموت حرقاً بالنار أو تمزيقاً على الخوازيق • لذلك كانت نظرية الحق المزدوج بالنسبة لأحرار الفكر الناقمين على طغيان

الكنيسة تمثل فرصة العمر الذهبية التي ستقرر مصير الحرية في أوربا ، فراحوا يفتحون عيون الناس بواسطتها على زيف السلطة الكنسية ، وعدم شرعيتها ، وضرورة فصلها وابعادها عن حياة المجتمع السياسية التي لا يمكن أن تقوم الا على أساس من الحقائق الواقعية العقلية بعيداً عن السفاسف والخرافات التي كان يسيطر بها القساوسة على حياة الجماعة : السفاسف التي لا يمكن أن تقبل كحقائق الا عندما تكون منعزلة داخل جدران الكنيسة فقط بالنسبة للذي « يرغب » في تقبلها ٠

وعندما راحت هذه التعاليم تضرب عميقاً في وعي الشعوب الاوربية المظلومة ، وشعر الحكام الطغاة من رجال الكنيسة بمدى خطر هذه التعاليم كسلاح سياسي ، ازداد الصراع حدة بين الكنيسة وأحرار الفكر ، كما راحت نقمة الشعوب تأخذ في الازدياد يوماً بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، وهو ما كان يرتجف منه الكرسي البابوي رعباً ، لذلك أصدر البابا جون الحادي والعشرون أمره بتحريم نظرية « أفيروس » ـ ابن رشد ـ في الحق المزدوج ، والأمر بقتل من يؤمن بها دونما شفقة ٠

على أن طبول ابن رشد كانت تدوي في كل مكان ، منذرة السلطة الكهنوتية وطغيانها بالويل والثبور ٠ اذ رغم كل وسائل الأرهاب التي استعملها رجال الدين لسحق تعاليم ابن رشد في اوربا ، استطاعت تلك التعاليم بما كان لها من حيوية ، ان تجتاز أسوار الكنيسة ذاتها وتهاجم الكهنوت المسيحي في معاقله لتسحق الأصفاد التي كبل بها القساوسة افكار الناس وامتهنوا حرياتهم الفكرية والسياسية ، وذلك عندما نهض توماس اكويناس ـ توما الأكويني ـ اكبر أعلام المسيحية في عصره (١٢٢٥ـ١٢٧٤) ، ليضع يده بيد ابن رشد ثم ليتخذ من أرسطو اماماً من أئمة الدين الهادف الى خير البشرية والعالم ، وأخيراً قال بأن الله انما هو الطبيعة الفعالة ، وبذلك ضرب الخرافات التي كانت تروجها الكنيسة والمتاجرون بالدين عرض الحائط ، وفتح أمام شعوب أوربا واحرارها درب الثورة الذي بدا آنذاك طويلا دامي الآفاق ٠

وهكذا ابن رشد ، كما أشرنا في صدر هذا المقال ، كان العامل الأكبر في بعث النهضة الأوربية التي ابتدأت في ايطاليا في القرن الثالث عشر ، وامتدت منها الى شمالي أوربا ، لتهيء مع الأيام الظروف الملائمة لمجيء عصر الثورة الفرنسية ٠ وقبل العودة الى سيرة الرجل العظيم ، أود أن أشير الى بعض ما لقيه اتباع ابن رشد في اوربا على يد محاكم التفتيش ٠ ذلك ان هذه المحاكم كانت تحسب على الناس أنفاسهم ، وخاصة من تظن بأنه يميل الى تعاليم ابن رشد ٠ ولقد حكمت تلك المحاكم على الكثير من أحرار الفكر بالموت ، فمنهم من مات بدواليب التعذيب المخيفة ، ومنهم من فارق الروح تحت السياط ، ومنهم من مزقت امعاؤه بالخوازيق ، ومنهم أيضاً من أحرق حياً بالنار ٠

وكانت أبرز المحاكمات مما يتعلق بابن رشد ، القضية التي نظر فيها مجلس التفتيش في مدينة لاهاي عام ١٥٠٢ ، والتي حكم فيها المجلس المذكور على القسيس « هرمان فان ريزويك » بالسجن مدى الحياة • وكان ريزويك نفسه من قبل ، من أكبر القساوسة المتعصبين للكنيسة ومن غلاة القضاة التي شهدتهم محاكم التفتيش ممن كانوا يدفعون المشتبه في عقيدتهم الى الموت دونما رحمة • ويشاء ربك أن يدفع حب الاطلاع هذا القاضي الى دراسة شروح ابن رشد لأرسطو فينقلب بين عشية وضحاها من جلاد للرشديين ، الى رشدي لم تر أوربا طوال عصر النهضة رشدياً مثله جرأة واخلاصاً لابن رشد قط • وهو عندما مثل أمام مجلس التفتيش للمحاكمة ، قال بجرأة نادرة المثال : « ان العالم قديم أزلي ، وان السيد المسيح لا يمكن أن يكون ابن الله ، واني قد ولدت مسيحياً ، غير اني لم أعد منكم الآن ، لأنكم مجانين • » •

وبعد أن قضى في سجنه مدة عشر سنوات ، اعيدت محاكمته مجدداً للنظر في ما اذا كان باقياً على آرائه المعادية للكنيسة ، فظهر بأنه أشد تمسكاً من ذي قبل ، وأشد عناداً وتحدياً ، اذ أعلن في المحكمة على رؤوس الأشهاد قائلا : «ان أكبر العلماء انما هو أرسطو، وشارحه أفيروس وهما اللذان وجهاني الطريق الصواب، وقد كنت قبلهما أعمى•»• عند ذلك رأى مجلس التفتيش أن لابد من القضاء عليه ، فأصدر حكم الموت عليه حرقاً بالنار ، ونفذ فيه الحكم واحرق حياً في الرابع عشر من أيلول عام ١٥١٢ في مدينة لاهاي، بعد ذلك دخل اسمه التاريخ كشهيد من شهداء حرية الفكر الكبار•• وأخيراً ، وبعد أن فعلت افكار ابن رشد في أوربا ما فعلت ، تفضل دانتي ومنحه مركزاً بارزاً في جحيمه في الكوميديا الآلهية ، كما تفضل ميكيل انجيلو ومنحه مركزاً مشابهاً في الفاتيكان •

وكان ابن رشد من أكابر أطباء عصره بالأضافة الى نبوغه في الفقه والفلك فضلا عن الفلسفة • وابن رشد كطبيب ، كان يرى في العلوم الطبية شواهد عظيمة من شأنها تعميق ايمان الانسان بربه ، فهو القائل : « ان من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايماناً بالله تعالى • » •

وعندما توفي ابن طفيل عام ١١٨٥م ، أصبح ابن رشد طبيب الأمير الخاص بدلا عنه فكان الأمير يرى في شخصيته شخصيتين اجتمعتا سوية في وقت واحد ، هما شخصية ابن رشد نفسه ، وشخصية صديقه الراحل ابن طفيل • عليه كان من الطبيعي أن نرى الامير ، وهو العالم الفاضل ، يقدم ابن رشد حتى على ابنه يعقوب ، بعد أن استصفاه وقدمه على جميع رجال الدولة والدين •

ولقد توفي الأمير يوسف عام ٥٨٠هـ ، وولي الحكم من بعده ابنه يعقوب الملقب بالمنصور بالله • وكانت منزلة ابن رشد لا تقل في شيء لدى الامير الجديد عنها لدى أبيه • بل وربما كان يعقوب قد تعلق بالحكيم العظيم

لدرجة أصبح معها ابن رشد رجل الغرب الاسلامي الذي لا يدانيه في نفوذه أحد ! وكان المنصور قد شغف بدراسة الفلسفة خلال حياته ايما شغف • لكن الظاهر عليه ، هو أنه كان قلق الشخصية ، فقد كان يتعصب أحياناً ، ويتسامح في أحيان أخرى ، وهو بين التعصب والتسامح كان قد أضر بالكثير من الناس • كذلك كثيراً ما كان الغرور يركب هذا الأمير • ويشير ابن ابي أصيبعة الى أنه كان يتضايق حتى من ابن رشد عندما يخاطبه هذا المفكر الكبير بكلمة « يا أخي » • بل وان التاريخ يسجل عليه بأنه امتنع عن نجدة صلاح الدين الأيوبي عندما سدت عليه الجيوش الصليبية الآفاق في احدى سني الحرب ، لا لشيء سوى ان صلاح الدين خاطبه في رسالته التي بعث بها اليه يطلب فيه العون والنجدة ، خاطبه بـ « أمير المسلمين » وليس بـ « أمير المؤمنين » !

وفي آخر سني حياته ـ وقد توفي قبل أن يبلغ الخمسين ـ اتجه المنصور هذا نحو التصوف معرضاً عن الفلسفة • وعندما بدأ البلاط الاندلسي يمتليء بالمتصوفين ، ثم بخصوم ابن رشد المتاجرين بالشريعة ، وهي سمحاء وكانت منهم براء ، انتهز هؤلاء الخصوم الفرصة وراحوا يشنون حملة نفاق واسعة النطاق ضد الفلسفة والفلاسفة وعلى رأسهم ابن رشد ، فمن قائل بأنه يقول ان كوكب الزهرة من الآلهة ، ومن قائل يقول بأنه ينكر قصة عاد وغيرها مما ورد في كتاب الله الكريم ، وآخر يوغر صدر الأمير في أنه وصفه بـ « ملك البربر » عند كلامه عن الزرافة في كتاب الحيوان ، ولم يصفه بـ « أمير المؤمنين » ، الى غير ذلك من الافتراءات التي أدت بذلك الأمير الغريب الشخصية الى أن يجمع الناس في المسجد الجامع بقرطبة ليشهدوا محاكمة ابن رشد وتلامذته بتهمة المروق من الدين •

وفي ذلك المسجد الذي ضاق على سعته بالناس ، حضر الخليفة مجلس المحاكمة • وبعد أن مثل ابن رشد وتلامذته أمام القضاة ، وقف القاضي أبو عبدالله بن مروان ، أكبر خصوم ابن رشد ، وألقى كلمة حمل فيها حملة قاسية عليه • ثم بادر خطيب المسجد ، أبو علي بن حجاج وأعلن للملأ بأن ابن رشد وتلامذته « قد مرقوا من الدين وخالفوا عقائد المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل • » • وأخيراً انتهت المحاكمة دون أن يسمح لابن رشد بالدفاع عن نفسه ، ثم صدر عليه قرار الحكم الذي قضى بنفيه الى مدينة « لوسينا » احدى المدن المجاورة لقرطبة ، وهي خاتمة اختلفت بعض الشيء عن خاتمة حياة سقراط الذي حكم عليه بالموت في محاكمة مماثلة قبل ابن رشد بقرون طويلة •

كذلك الشعراء قاتلهم الله ، فانهم كالعادة ، لم يتأخروا عن المساهمة في حملة النفاق • ولقد كانت قضية ابن رشد مجالا رحيباً لقرائحهم فنظموا فيها ما لا يحصى من الأبيات والقصائد المشحونة بالسخرية والازدراء والتجاوز على مفكر العرب العظيم • وكان مما يؤسف له حقاً ان يشارك رجل فاضل ،

وأديب عالم كابن جبير ، الرحالة العربي الشهير ، في تلك الحملة . ولقد قال ابن ابن جبير في بعض ما قال بعد صدور الحكم على ابن رشد :

نفذ القضاء بأخذ كل مضلل ... متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة ... ان البلاء موكل بالمنطق

ومما قاله أيضاً

كان ابن رشد في مدى غيه ... قد وضع الدين بأوضاعه
فالحمد لله على أخذه ... وأخذ من كان من أتباعه

وبعد ان تم نفي ابن رشد ، أمر المنصور بكتابة منشور يوزع على مدن الغرب العربي لاعلام الناس بما آل اليه أمر ابن رشد ، وتحذيرهم من فلسفته وآرائه وكتبه . وكان مما جاء في ذلك المنشور قول كاتبه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا بحور الأوهام ، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام ، حيث لا داعي يدعو الى الحي القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا في العالم صحفا مالها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون ان العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً ، ويسيرون فيها شواكل وطرقا ، ذلكم بأن الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » ألا ساء ما يزرون . ونشأ منهم في هذه الحجة البيضاء شياطين انس ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون الا انفسهم وما يشعرون ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ...

فاحذروا ، وفقكم الله ، هذه الشرذمة على الايمان حذركم من السموم السارية في الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه ، واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه . ومتى عثر منهم على مجد في غلوائه ، عم عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف ، ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ... والله تعالى يطهر من دنس الملحدين اصقاعكم ، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، انه منعم كريم .. »

على ان محنة ابن رشد لم تطل أكثر من سنة واحدة ، فلم تكن الاندلس العربية لتخلو يوماً من أحرار . ولقد هب أحرار الفكر والضمير من وجوه العرب في اشبيلية وغيرها لنجدته فاستطاعوا أن يقنعوا المنصور بأن ابن رشد انما هو من أكابر رجال الدنيا الاسلامية المؤمنين بالله ، وان ما قيل

فيه كان من قبيل الدس ، فعفا المنصور عنه وعن جميع تلاميذه ، وندم كل الندم على ما فعله بهم ، ثم رجع الى مراكش ، وأمر بالغاء المنشور الذي أصدره بحقهم ، واستدعى ابن رشد اليه ثانية ، وقربه وتلاميذه منه كل القرب ، وكان ابن رشد يومها قد جاوز السبعين ٠

لكن حياة ابن رشد كانت قد اقتربت من نهايتها ، اذ لم يطل به العمر بعد تلك النكبة اكثر من سنة ٠ وفي ليلة الجمعة في العاشر من كانون الأول عام ١١٩٨م ، شهدت مدينة مراكش نهاية الرجل العظيم ، واذاعت على الدنيا كلها الكلمات الخالدة لفيلسوف العرب الأكبر اذ قال وهو يسلم الروح : « تموت روحي بموت الفلسفة ٠ » ٠



من مراجع البحث :

ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ٠
الغزالي : تهافت الفلاسفة ٠
ابن رشد : تهافت التهافت ٠
ابن رشد : فصل المقال ٠٠٠
ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ٠٠٠
بيوري : حرية الفكر ٠
روبرتسن : موجز تاريخ الفكر الحر ٠